

الهجرة إلى الحبشة الثانية

إحدى الشابات المذبذبات هي (هند) أم سلمة رضي الله عنها.. تحدثنا عن رحلة الألام كاملة فتقول: (لما ضاقت علينا مكة، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم^(١)، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها أرسالاً، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار، وإلى خير جار، آمناً على ديننا ولم نخش منه ظملاً. فلما رأت قريش أننا قد أصبنا داراً وآمناً اجتمعوا على أن يبعثوا إليه^(٢) فينا، فيخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم.

فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة فجمعوا له هدايا، ولبطارقتة^(٣)، فلم يدعوا رجلاً منهم إلا هياًوا له هدية على حدة، قالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا هداياها، وإن استطعتم أن يردهم عليكم قبل أن يكلمكم فافعلوا.

فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقتة إلا قدموا إليه هديته، وكلموهم، فقالوا لهم: إنا قدمنا إلى هذا الملك في سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه، فأشيروا عليه أن يفعل. فقالوا: نفضل.

ثم قدموا إلى النجاشي هداياها، وكان من أحب ما يهدى إليه من مكة الأدم^(٤)، فلما أدخلوا عليه هداياها، قالوا له: أيها الملك، إن فتية من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم: آباؤهم، وأعمامهم، وقومهم لتردهم، فهم أعلاهم عيناً.

(١) مر معنا تخريج هذا الجزء.

(٢) أي إلى النجاشي.

(٣) البطريق أو البطريرك هو رئيس الأساقفة، والأسقف العالم النصراني وهو فوق القس والقس غالباً هو المتفرغ للعبادة وخدمة الكنيسة.

(٤) الجلود.

فقال بطارقتة: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا أعلاهم عيناً، فإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك.

فغضب، ثم قال: لا، لعمر الله لا أردهم إليهم حتى أدعوهم، فأكلهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجأوا إلى بلادي واختاروا جوارى على جوار غيري، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتم، ولم أخل ما بينهم وبينهم، ولم أنعمهم^(١) عيناً.

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم، ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم.

فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم، فقال: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا نقول!.. نقول والله ما نعرفه، وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما كان.

فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب، فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه، فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

فقال جعفر: أيها الملك، كنا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان، نأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نجرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا، نعرف وفاءه، وصدقته، وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي لله، ونصوم له، ولا نعبد غيره.

فقال النجاشي: فهل معك شيء مما جاء به - وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله - هلم فأتل علي ما جاء به.

فقرأ عليه صدراً من: ﴿كَهَيْعَصَ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ②﴾
إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ

(١) نعمة العين أي قرتها، أي أقر أعينكم برجعهم إليكم.

أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي
 عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا
 ﴿٦﴾ يَنْزِكِرِيَّ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ
 رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾
 قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ
 رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى
 قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَبْجِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ
 وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرِزْقًا وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ
 جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ
 مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا
 رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ
 إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي
 بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ
 وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَاصِيًّا ﴿٢٢﴾
 فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾
 فَوَادَّهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكِ الْجِذْعَ النَّخْلَةَ سُقِطَ
 عَلَيْكِ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكَلِمِي وَأَسْرِبِي وَقَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ
 لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمَلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ
 جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هُنُورٌ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾
 فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ
 وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا
 ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
 وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

(١) ما بين الأقواس ليس في نص الحديث، لكن جعفرًا قرأه بالتأکید وقد ذكرته ليستشعر القارئ ذلك الموقف، ولم أكمل الآيات لأنه من المؤكد أنه لم يقرأ ما بعدها لأنها تتحدث عن وحدانية الله، وعن بشرية عيسى، ولو قرأها لما تكلم عمرو بن العاص فيما بعد.

فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته^(١)، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة^(٢) التي جاء بها عيسى، انطلقوا راشدين، ولا والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عينا.

فخرجنا من عنده، وكان أبقي الرجلين فينا^(٣) عبد الله بن أبي ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم^(٤) إنهم يزعمون إن إلهه الذي يعبد عيسى بن مريم: عبد. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً، ولهم حقاً. فقال عمرو بن العاص: والله لأفعلن.

فلما كان من الغد دخل عليه فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم رسولاً فاسألهم عنه.

فبعث إليهم - ولم ينزل بنا مثلها، فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقال: نقول والله الذي قال الله تعالى فيه، والذي أمرنا به نبينا ﷺ أن نقول فيه.

فدخلوا عليه، وعنده بطارقه، فقال: ماذا تقول في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر: نقول عبد الله ورسوله، وكلمته^(٥)، وروحه^(٦)، ألقاها إلى مريم العذراء البتول^(٧).

فدلى النجاشي يده إلى الأرض، وأخذ عويداً بين إصبعيه، فقال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العويد^(٨).

فتاخرت^(٩) بطارقه. فقال: وإن تتاخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم في أرضي - والسيوم الآمنون - من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم - ثلاثاً

(١) تبلت بالدموع.

(٢) الكوة التي في الجدار يوضع فيها المصباح. أي أنه من المصدر نفسه.

(٣) أي أشفق وأرحم.

(٤) أصلهم.

(٥) كلمة الله: أي قول الله كن فيكون، كما قال لآدم كن فكان بلا أب ولا أم.

(٦) روح الله، مثل قولك للكعبة إنها: بيت الله.

(٧) العذراء المنقطعة عن الزواج.

(٨) تصغير كلمة عود. أي أن عيسى هو كما وصفه القرآن الكريم.

(٩) أي أخرجوا أصواتنا من أنوفهم، أو تتحننوا استنكاراً لقوله واحتجاجاً.

- ما أحب أن لي دبراً وأني آذيت رجلاً منكم - والدبر بلسانهم: الذهب - والله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فاخرجنا من بلادي. فرجعا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به.

فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار، فلم ينشب^(١) أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد منه فرقاً من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرف، فجعلنا ندعو الله ونستغفره للنجاشي، فخرج إليه سائراً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض: من رجل يخرج فيحضر الوقعة حتى ينظر ما يكون، فقال الزبير - وكان من أحدثهم سناً: أنا.

فنفخوا له قربة، فجعلها في صدره، ثم خرج يسبح عليها في النيل، حتى خرج من شقه الآخر إلى حيث التقى الناس، فحضر الوقعة، فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي، فجاءنا الزبير يليح علينا بردائه، ويقول: ألا أبشروا، فقد أظهر الله النجاشي.

فوالله ما علمنا فرحنا بشيء قط فرحنا بظهور النجاشي، ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكة، وأقام من أقام^(٢).

هذه هي قصة النجاشي مع المهاجرين، فما قصة الرشوة التي تحدث عنها ذلك الملك الطيب.. هدية الحبشة للإسلام..؟ وما معنى قوله: (ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه)؟

ذلك أمر حدث بين أنهار الحبشة وأدغالها، تحدثنا عنه إحدى بنات أبي بكر الصديق فتقول رضي الله عنها: (إن أباه^(٣) كان ملك قومه، وكان له أخ من صلبه اثنا عشر رجلاً، ولم يكن لأبي النجاشي ولد غير النجاشي، فأدارت الحبشة رأيها، فقالوا: إنا إن قتلنا أب النجاشي وملكتنا أخاه، فإن له اثني عشر رجلاً من صلبه فتوارثوا الملك

(١) لم يمر زمن طويل حتى.

(٢) سيأتي تخريجه في نهاية الخبر التالي، فهو جزء منه.

(٣) أي والد النجاشي.

لبقيت الحبشة عليهم دهنراً طويلاً لا يكون بينهم اختلاف، فعدوا عليه، فقتلوه، وملكوا أخاه، فدخل النجاشي لعمه حتى غلب عليه^(١)، فلا يدير أمره غيره، وكان ليبياً، فلما رأت الحبشة مكانه من عمه قالوا: لقد غلب هذا الغلام أمر عمه، فما نأمن من أن يملكه علينا وقد عرف أننا قد قتلنا أباه، فإن فعل لم يدع منا شريفاً إلا قتله، فكلموه فيه، فلنقتله أو نخرجه من بلادنا.

فمشوا إليه فقالوا: قد رأينا مكان هذا الفتى منك، وقد عرفت أننا قد قتلنا أباه، وجعلناك مكانه، وإنا لا نأمن أن تملكه علينا فيقتلنا، فإما أن تقتله، وإما أن تخرجه من بلادنا، فقال: ويحكم قتلتم أباه بالأمس، وأقتله اليوم، بل أخرجته من بلادكم.

فخرجوا به، فوقفوه بالسوق، فباعوه من تاجر من التجار، فقذفه في سفينة بستمائة درهم، أو بسبعمائة درهم، فانطلق به، فلما كان العشي هاجت سحابة الخريف، فجعل عمه يتمطر تحتها، فأصابته صاعقة، فقتلته، ففزعوا إلى ولده، فإذا هم محمقين^(٢) ليس في أحد منهم خير، فمرج على الحبشة أمرهم، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله أن ملككم الذي لا يصلح أمركم غيره للذي^(٣) بعتم بالغداة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه قبل أن يذهب.

فخرجوا في طلبه حتى أدركوه، فردوه فعدوا عليه تاجه، وأجلسوه على سريريه، وملكوه، فقال التاجر: ردوا علي مالي كما أخذتم مني غلامي. فقالوا: لا نعطيك، فقال: إذا والله أكلمه. فقالوا: وإن.

فمشى إليه فكلمه فقال: أيها الملك، إنني ابتعت غلاماً فقبضوا مني الذي باعوني به، ثم عدوا على غلامي فنزعوه من يدي، ولم يدروا علي مالي.

فكان أول ما خبر من صلابة حكمه وعدله أن قال: لتردن عليه ماله، أو ليجعلن غلامه في يده، فليذهبن به حيث شاء؟

فقالوا: بل نعطيه ماله. فأعطوه إياها.

(١) أي أن النجاشي بعد قتل أبيه تقرب من عمه ولازمه حتى أصبح أوثق الناس عنده.

(٢) أي حمقى: والحمق قلة العقل.

(٣) لا يصلح أمركم غير النجاشي الذي بعتم.

ولذلك يقول: ما أخذ الله مني الرشوة فأخذ الرشوة منه حيث رد علي ملكي، وما أطلع الناس في فأطيعهم فيه^(١).

ذلك هو النجاشي، وتلك قصة تتويجه.. تتويج العدالة الحبشية. ذلك الملك الأسمر نال شهادته من السماء بعد أن عدل بين شعبه.. نال شهادته قبل أن ينصف المسلمين. قال ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده) قبل أن يصل أصحابه، وقبل أن يسمعوا عنه. فلتهنأ الحبشة بسبقها، فلقد أنصفت المسلمين من برائن مشركي قريش، وأوتهم بعد أن ضاقت عليهم مكة، في حين كانت يد قريش تمتد في حقد عجيب.. في تسلط حقير لتكتم الأنوف والأفواه، وتمنع الهواء.

إنها تحسدهم على أرض يمشون عليها، وتحسدهم على حصير يلقون عليه أجسادهم التي أتعباها الترحال والشقاء!! ترى أي قلوب كانت تضمها أجساد المشركين حتى يركضوا خلف الراحلين، ويدفعوا الرشوة لطرد هؤلاء الضعفة المساكين..!٥٠
رجلان أرسلتهما قريش بتلك المهمة الوضيعة: عمرو بن العاص.. وعبد الله بن أبي ربيعة.

دعونا نستمع إلى أحدهما (عمرو بن العاص) وهو يقص علينا قصته، وأثرها في نفسه. بالطبع هي قصة الوجه البشع لرسول قريش في تلك الأزمنة العصبية على الإسلام، فكيف كان يرى عمرو رحلته، وماذا تكشف له بعد أن سمع ورأى ما حدث. يقول عمرو بن العاص: (لما رأيت جعفرأ وأصحابه آمنين بأرض الحبشة. فقلت: لأفعلن بهذا وأصحابه، فأتيت النجاشي، فقلت: ائذن لعمرو بن العاص. فأذن لي. فدخلت. فقلت: إن بأرضنا ابن عم لهذا يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد، وإننا والله إن لمن ترحنا منه وأصحابه، لا أقطع إليك هذه النطفة^(٢) أبداً، ولا أحد من أصحابي. فقال: أين هو؟ فقال عمرو: إنه يجيء مع رسولك، إنه لا يجيء معي، فأرسل معي رسولاً.

(١) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢-٣٠١) وأحمد (١-٢٠١) حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة زوج النبي ﷺ. الزهري إمام ثقة ثبت معروف، وأبو بكر تابعي ثقة فقيه عابد التقريب ٦٢٢.

(٢) النطفة هي الماء الصافي، وربما أراد بها البحر.

فوجدناه قاعداً بين أصحابه، فدعاه، فجاء، فلما أتيت الباب ناديت: ائذن لعمر بن العاص. ونادى خلفي: ائذن لحزب الله عز وجل، فسمع صوته، فأذن له.

فدخلت، فإذا النجاشي على السرير، وجعلته خلف ظهري، وأقعدت بين كل رجلين من أصحابه رجلاً من أصحابي فسكت وسكتنا، وسكت وسكتنا، حتى قلت في نفسي: العن هذا العبد الحبشي ألا يتكلم.

ثم تكلم، فقال: نجروا - أي تكلموا. فقلت: إن ابن عم هذا يزعم إنه ليس للناس إلا إله واحد، وإنك والله إن لم تقتله لا أقطع إليك هذه النطفة أبداً، أنا ولا أحد من أصحابي.

فقال النجاشي: يا أصحاب عمرو ما تقولون؟ قالوا: نحن على ما قال عمرو. قال النجاشي: يا حزب الله نجر.

فتشهد جعفر - والله إنه لأول يوم سمعت فيه التشهد ليومئذ.

قال جعفر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال النجاشي: فأنت فما تقول؟ قال جعفر: أنا على دينه، فرفع يده ثم وضعها. ثم قال النجاشي: أناموس كناموس موسى، ما يقول في عيسى؟

قال جعفر بن أبي طالب: قول: روح الله^(١) وكلمته.

فأخذ النجاشي شيئاً من الأرض ثم قال: ما أخطأ فيه مثل هذه، لولا ملكي لأتبعتمكم. اذهب أنت يا عمرو، فوالله ما أبالي أن لا تأتيني أنت ولا أحد من أصحابك أبداً، واذهب أنت يا حزب الله. فأنت آمن.. من قتلك قتلته، من سبك غرمته.

وقال لأذنه: انظر هذا فلا تحجبه عني إلا أن أكون مع أهلي، فإن كنت مع أهلي فأخبره، فإن أبي إلا أن تأذن له فأذن له^(٢). هذا ما حدث في الحبشة.

(١) كلمة الله مثل معنى بيت الله، وأرض الله، وكلمته أي قول الله كن (فيكون) كما قال تعالى في آل عمران (٩٥) إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. فعيسى خلق من غير أب، وآدم خلق من غير أب ولا أم.

(٢) إسناده حسن، رواه البزار ١٣٤-٤: حدثنا محمد بن المثنى: حدثنا معاذ، حدثنا ابن عون، حدثني عمير بن إسحاق، حدثني عمرو بن العاص. ابن المثنى ثقة ويعرف بالزمن التقريب ٥٠٥ ومعاذ بن معاذ بن نصر: ثقة متقن، وعبد الله بن عون بن أربطبان ثقة ثبت فاضل. وعمير بن إسحاق تابعي حسن الحديث والكلام فيه لا يضر ولا ينزله عن رتبة الحسن.

أما في مكة

بعيداً عن الحبشة، خلف آلاف الأميال.. خلف البحار خلف الجبال ووسط لهب من الكفار.. كان ﷺ صامداً لا يذوب لا ينثني. قد أدرك أن قريشاً تعاند، فلا بد من البحث عن تربة خيراً من هذه التربة.. خيراً من هذه القلوب الصدئة. لا بد من البحث عن قبائل تحتضن الدعوة.. تساندها، وتدافع عنها وتجمع أشاتها، فدعاتها هاربيون دائماً.. هائمون دائماً، وغربتهم موحشة مضمّنة. قد أذابتهم الأحزان، وطوحتهم الأيام خلف الجبال والبحار، وبين اللحد.. يتلفتون كأنهم قد سرقوا الإيمان سرقة.. يتلفتون خشية أن يؤخذ منهم، ويفزعون عند سماعهم خشف نعال، أو طرق باب.. فزع المحكوم عليه بالإعدام، فهو في زنزانتة ينتظر الجلاد، ويراه قادماً مع كل حركة.. مع كل همسة. وكأن الموت يعد بقية أنفاسه، فهل من مخرج؟

رجل اسمه (ربيعة الديلي) يروي مأساة النبي عليه السلام في أسواق الجاهلية ومنتدياتها، ومعاناته مع أقرب الناس إليه. يروي إصراره على الماضي والتوغل في صحارى التجاهل، فلا بد من نهر خلف تلك الصحاري، أو نبع ماء..

يقول ربيعة: (رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

ويدخل في فجاجها^(١) والناس متقصفون^(٢) عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت.. يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا) أجل.. تفلحوا. إنه لا يريد أموالكم ولا ماعندكم، فما يريده هو العودة بهذا القطيع الشارد إلى موارد الماء والكلأ، بعد أن تاه في صحاري الشرك الشاسعة التي تقطع الأعناق باللهاث خلف سرابها، لكن قريشاً لا تدعه.. لا ترحمه، حتى وهو يخاطب من ليس منها لا تدعه.

يصف ربيعة ما رأى فيقول: (إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه، ذا غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة. قلت: من هذا الذي يكذبه. قالوا: عمه أبو لهب)^(٣).

(١) الفجاج الطريق الواسع.

(٢) مجتمعون عليه.

(٣) حديث حسن رواه أحمد ٤-٣٤١ من طريق ابن أبي الزناد، وقد ساء حفظه عندما قدم بغداد وربما كان هذا منها، وبقية رجاله ثقات، وما بعده شاهد يقويه.

كأن السورة التي نزلت فيه وفي امرأته أضمرت بيته، فصار لا يقر له قرار وهو يرى عاره على كل لسان، وفي كل نظرة لهباً يشويه. إنه التشفى ومحاولة إطفاء متأخرة لما قد احترق منه.

إن إسلام المزيد من الناس يعني لأبي لهب المزيد من شتمه، والتقرب إلى الله يبعثه، فقام يمارس تحطيم كل بناء للنبي ﷺ، ويحاول الإبقاء على الظلام بإطفاء كل شمعة يشعلها عليه السلام، فهو يركض خلفه لا يطلب الراحة لنفسه، ولا لغيره، وكيف يجدها! وقد حشته تلك الآيات جمرًا وصغاراً على كل لسان.

يقول ربيعة: (رأيت أبا لهب بعكاظ وهو يتبع رسول الله ﷺ، وهو يقول: يا أيها الناس إن هذا قد غوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم. ورسول الله ﷺ يضر منه، وهو على أثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان، كأنني أنظر إليه أحول ذا غديرتين، أبيض الناس وأجملهم)^(١) بل ومن أشرفهم نسباً، لكن ذلك كله لم يسعف رجلاً حشرت في رأسه كل رموز التخلف، والشرك والهمجية.

لا شيء سوى كتلة متورمة من الأحقاد والضغائن تتدحرج خلف رسول الله ﷺ، الذي يتجاهله ويصوب بصره نحو الأمام.. نحو البناء.. يتبع القبائل كلها، ويقف أمامها كلها.. يتلمس خيامها في كل سنة تنصب فيه تلك الخيام، فيدلف كل خباء، باحثاً عن قلوب تتلمظ فيها الفطرة كالعطش، فيصغي إليها من سحاب التوحيد العذب والحياة مع الله ما يرويها ويذهب عطشها.

كان يغشى أسواقهم التي يقيمونها كل عام للتجارة والشعر والأدب.. يغشاها ينثر في دروبها عبير الإيمان، ويبعث عن أنصار، وكان بصحبته رفيق طفولته، وصديق نبوته أبو بكر الصديق، وشاب كله حياة.. هو ابن أخيه علي بن أبي طالب الذي يقول:

(لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر رضي الله عنه)^(٢).

(١) حديث حسن، رواه أحمد ٢-٤٩٢، حدثنا مصعب بن الزبير، وهو عالم صدوق، حدثني عبد العزيز بن محمد الداروردي وحديثه هنا حسن لأنه عن غير عبيد الله العمري، عن ابن أبي ذئب: محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة وهو ثقة فاضل فقيه، عن سعيد بن خالد القرظي، وهو تابعي صدوق. التهذيب ٤-٢٠. وهو شاهد لما قبله.

(٢) قطعة من حديث طويل صحيح سيمر معنا إن شاء الله. عند الحديث عن لقاء الأنصار.

لقد (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في كل سنة على القبائل من العرب أن يؤوه إلى قومهم، حتى يبلغ كلام الله عز وجل ورسالاته، ولهم الجنة)^(١).

لقد (لبث عشر سنين يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم: مجنة، عكاظ ومنازلهم بمعنى: من يؤويني وينصرنني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة)^(٢) عشر سنوات يتلطف مع (بني حنيفة) و(كندة وقلب) يذهب إلى (بني عبس وهمدان) وله مع (بني عامر بن صعصعة) لقاءات.. عشر سنوات من الصبر والمكابدة (يتبع القبائل ووراء رجل أحول وضئ^(٣) ذو جمّة^(٤))، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة ويقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال الآخر من خلفه:

يا بني فلان إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الحي بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه)^(٥).

كانت أخباره تنتقل في كل اتجاه من جزيرة العرب، وذات يوم صادفت قلباً لرجل من غفار يدعى (أبو ذر):

إسلام أبي ذر الغفاري

لقد تعب أبو لهب من الرخص خلف رسول الله ﷺ وأتعب يديه، وتعبت زوجته من هذا التراب.. ينثرونه فوق رأس رسول الله ﷺ، والشوك يغرزونه في طريقه. لقد

(١) حديث حسن رواه الطبراني وأبو نعيم (٢٩٢) لأنه من طريق عبد الله بن عمر بن حفص رجل صالح عابد صدوق في نفسه، لكن في حديثه بعض الاضطراب ويشهد له ما بعده.

(٢) سنده صحيح وسيمر معنا كاملاً عند الحديث عن لقاء الأنصار إن شاء الله.

(٣) حسن وجميل.

(٤) ما ترامى من شعر الرأس على المنكبين.

(٥) إسناده قوي: رواه أحمد ٢-٩٢٢ حدثنا مسروق بن المرزبان، حدثنا ابن أبي زائدة قال ابن إسحاق

حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس سمعت ربيعة الديلي يقول.. وقال أحمد: حدثنا سعيد بن أبي الربيع السمان، حدثني سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، حدثنا محمد بن المنكدر أنه سمع ربيعة الديلي يقول: رأيت رسول الله ﷺ... من هذين الطريقتين طريق ضعيف، وهو الإسناد الأول، لأنه من رواية حسين بن عبد الله، قال في التقريب ١٦٧: ضعيف لكن يشهد له ما بعده، فشيخ أحمد: السمان صدوق، قال ابن حبان: يعتبر حديثه من غير روايته عن أبيه. وهذه ليست منها. ذيل الكاشف ١١٨ وشيخه صدوق أيضاً التهذيب (٤١/٢) وشيخه محمد بن المنكدر ثقة فاضل قاله في التقريب ٥٠٨.

تعب أبو لهب وأتعب معه رسول الله ﷺ، لكن تلك السنوات من الصبر والعرق كانت كفيلاً بانتشار عبير الإسلام، فأخبار رسول الله ﷺ تطايرت هنا وهناك، فصادفت قلوباً مفتوحة.. نفوساً فسيحة، فتعلقت بما سمعت وعشقتة، وأتعبت مطاياها في البحث عنه.

قلب أبي ذر من تلك القلوب.. هاهو يحدث من حوله عن ذلك الحب.. عن ذلك الشوق فيقول: (كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج مكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل، كلمه، واثنتي بخبره.

فانطلق، فلقية، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر. فقلت له: لم تشفني من الخبر.

فأخذت جراباً وعصاً، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد، فمر بي علي، فقال: كأن الرجل غريب؟ قلت: نعم. قال: فانطلق إلى المنزل.

فانطلقت معه لا يسألني عن شيء، ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، فمر بي علي. فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قلت: لا. قال: انطلق معي.

فقال علي: ما أمرك، وما أقدمك هذه البلدة؟ قلت له: إن كتبت علي أخبرتك. قال: فإني أفعل.

قلت له: بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه.

فقال علي بن أبي طالب: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه، فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإن رأيت أحداً أخافه عليك. قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامض أنت، فمضى ومضيت معه، حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض علي الإسلام. فعرضه فأسلمت مكاني.

فقال لي: يا أبا ذر، اكنم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد، وقريش فيه.

فقال أبو ذر: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب علي، ثم أقبل عليهم، فقال: ويلكم، تقتلون رجلاً من غفار، ومتجركم وممركم على غفار.

فأقلعوا عني، فلما أصبحت الغد رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فصنع مثل ما صنع بالأمس، وأدركني العباس، فأكب علي، وقال مثل مقالته بالأمس^(١).

كان الشرك رعباً تطوف أشباحه في دروب المسلمين، فتلتصص على أبوابهم وأفواههم.. علي رضي الله عنه لا يستطيع التحدث بالأمر خوفاً على رسول الله ﷺ، وأبو ذر كذلك. ولما سأل علي ضيفه سؤلاً عادياً، فكان الجواب غير عادي.

لقد سأله علي فقال: (ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال أبو ذر: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت. ففعل، فأخبره)^(٢).

إن على الكلمات رقيباً، وما لم تثق بمحدثك فإن الكلمات مجازفة بالحياة، والصمت أسلم. وحتى بعد أن أسلم أبو ذر.. لم يعطه ﷺ شيئاً غير الشهادتين، ولم يخبره عن أسلم حتى أنه كان يقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع)

ولا شك أن هناك الكثير ممن أسلم قبله، وإلا فكيف وصل الخبر إلى غفار، كما أن النبي ﷺ لم يعده بنصر في الدنيا، بل أمره بالكتمان والسرية والتكتم، وزاد على ذلك فأمره بالعودة إلى بلاده فوراً، ولما تصرف أبو ذر من تلقاء نفسه، وخالف أمر النبي فأعلن إسلامه وصرخ بالشهادتين وسط قريش.. تعرض للضرب المبرح، وكاد أن يموت بين أيديهم.. لم يتدخل عليه السلام إطلاقاً.. لقد أشار عليه ﷺ بالكتمان وأمره بالرجوع إلى أهله.. لكن حماس أبي ذر طغى فقال من قريش ما نال.

أبو بكر الصديق يناله العذاب أيضاً. يؤذونه ويشتمونه، ويتعرضون له في الطرقات،

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٩٤.

(٢) جزء من حديث البخاري السابق.

حتى أصبحت مكة أضيّق من موضع قدميه . عندها قرر الهجرة إلى أرض يجد فيها شمساً وهواءً وعبادة . بعيداً عن أرجاس الطغاة وسياطهم .

أبو بكر يهاجر

تقول ابنته الصغيرة الطاهرة عائشة رضي الله عنها : (لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار ، بكرة وعشية ، فلما ابتلي المسلمون ، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ، حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة - وهو سيد القارة - فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟

فقال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ، فقال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يُخرج ، ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا جار لك ، ارجع واعبد ربك ببلدك .

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش . فقال لهم : إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر يعبد ربه في داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ في غير داره .

ثم بدا لأبي بكر فابتى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلي فيه ، ويقرأ القرآن ، فينقذ عليه نساء المشركين وأبنائهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك ، على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإننا قد كرهنا أن نخضرك ، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، فقال: قد علمت الذي عاقدت عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرتُ في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل^(١).

فقام ابن الدغنة، فقال: (يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد علي جواري، فشأنكم بصاحبكم)^(٢).

كانت قريش وسفهاؤها بالانتظار، ولن يشك أحد بهجوم أحد هؤلاء المجرمين فيضربه رضي الله عنه، أو يدميه، أو يحثو في وجهه التراب، فليس له من نصير سوى الله، وسيتحمل في سبيله كل ما يصادفه، أما رفاقه فشاردون في الشعاب والأودية، هاربون من بطش قريش المفزع، أو متلبطون في قيودهم تحت السياط، وفوق الرمضاء، وأما نبيهم فقد نزع دمه وتفاقم جرحه وألمه.

دماء رسول الله

في أحد أيام المعاناة تلك.. أيام مكة الملتهبة.. (اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً)^(٣).

لم تكن هذه المرأة الوثنية ترمي إلى أكثر من التشفي، أما ما حدث فهو أنه قد رمى رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه، فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤١٧.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح (ابن هشام ١٦/٢) حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عروة عن عائشة، وعروة والزهري تابعيان إمامان ثقتان.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن أبي حاتم ١٢-٤٢٢ من طريق أبي أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، سمع جندب يقول: رمي رسول الله ﷺ.. الأسود تابعي ثقة التقريب ١١١ وسفيان الثوري إمام ثقة حافظ، وتلميذه حماد بن أسامة ثقة ثبت صرح بالسماع.

فمكث ﷺ ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت (١): ﴿ وَالصُّحَىٰ ۝۱ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝۲ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝۳ ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝۴ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝۵ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝۶ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝۷ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝۸ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرُ ۝۹ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ ۝۱۰ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝ ۝ .

أيها النبي النازف، المتهم جوراً وظلماً.. ها هو العظيم يقسم أنه ما تركك، وما تخلى عن نصرتك، فلا تستمع لهؤلاء المرتكسين.. لديك مهمة فأدها، وجزاؤك أبداً ليس في الدنيا.. إنه هناك في الجنة.. في الفردوس ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝۵ ﴾ .

لكن وأنت في زحمة الأذى وتداعي المصائب، ومحاولات التخذيل وأنت في هذا كله.. تذكر نعمة الله عليك، وإياك.. إياك أن تتسى ذلك المنكسر.. الذي تمتد يده.. تحوم عيناه يبحث عن أبيه، فيجيبه اليتيم بالنحيب.. كن له أباً.. قد كنت يتيماً فتذكر مرارة اليتيم، وكنت مسكيناً فلا تنهر مسكيناً، ولا ترد يده الممدودة لك، ولا تعرض عنه.. حتى ولو كنت في درب مزدحم بالشواغل.. التفت إليه وواسه .

كم هي ثقيلة أمانة النبوة.. نبي كسير حسير.. يحتاج إلى مواساة، فيؤمر أن يواسي الأيتام والكادحين والفقراء وإلا عوتب، وإن كان نبياً.. لقد نزلت كلمات عتاب أخرى لرسول الله ﷺ بسبب غفلة بسيطة عن أحد المساكين، فما الذي حدث عندما:

عبس وتولى

نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝۱ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝۲ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يُزَكَّىٰ ۝۳ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝۴ أَمَا مَنِ اسْتَفْعَىٰ ۝۵ فَاذْنُ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝۶ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ۝۷ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَهُ يَسْعَىٰ ۝۸ ۝ وَهُوَ يَحْسَبُنَىٰ ۝۹ فَاذْنُ عَنْهُ لَلْهَىٰ ۝۱۰ ۝ كَلَّا إِنَّمَا لَذَكْرٌ لَّهُ ۝۱۱ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝۱۲ ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝۱۳ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝۱۴ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝۱۵ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝۱۶ ۝ .

عتاب شديد أنزله الله سبحانه، عتاب موجه لنبيه.. ولو لم يكن محمد ﷺ نبياً لأخضى ذلك العتاب ومحاه، ولم يُطلع عليه أحداً.. لكنها النبوة.. لكنه الأمين.

(١) إسناده صحيح، وهو من طريق الحديث السابق.

أما قصة ذلك العتاب فهي أن مسلماً مسكيناً ضريراً البصر اسمه: عبد الله بن أم مكتوم (أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني - وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين - .

فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا^(١) فأنزل الله آياته تصحح الخطأ وتجبر الكسر.. ترى كم يساوي ذلك الأعمى المسكين عند الله!!

لقد استحق نزول آيات الجبار تعاتب نبيه فيه.. إنه في ميزان الإسلام: رجل مسلم.. اختار الله ورفض الأوثان، ولن يفرق الإسلام يوماً بين مسكين وثري، فالجميع بنيان متراص، وطاقات متناغمة.. تسير بالإنسانية نحو جمال الحياة وصفائها، وكما أن لهؤلاء المشركين حق الدعوة والتبشير، فإن لهذا المسكين ولكل المساكين حقوقاً. لقد أدب الله نبيه ﷺ فأحسن تأديبه، فهو يذرع الأرض امتثالاً ويقول: (اللهم أحييني مسكيناً، وأممتي مسكيناً، واحشرنني في زمرة المساكين)^(٢).

إنه يقول: (أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد)^(٣)، ويقول ﷺ: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله^(٤))، (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)^(٥)، يعني متجاورين كالأصابع، فأين سيكون جار النبي ﷺ إن لم يكن في الفردوس حيث أعلى الجنة ومنتهى النعيم، وذلك لا يعني إغفال الأغنياء والسادة المطاعين، فإن إسلامهم نصر عظيم، والحياة تقوم على تكاتف الفقير مع الغني. لكن في أحوال السادة والوجهاء ميل إلى الاحتفاظ بما حولهم،

(١) سنده صحيح، رواه ابن جرير ٣٠-٣٢، والواحدي ٢٩٧ وغيرهم من طرق عن سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، عن أبيه، عن هشام عن أبيه عروة عن عائشة، وسعيد ووالده ثقتان. التهذيب (١١/٢١٣) و (٩٨/٤) وهشام ووالده ثقتان معروفان.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (١/٣٩٨).

(٣) سنده صحيح، رواه إسحاق بن راهويه، ومن طريقه: البيهقي ٢-١٩٨ والحاكم ٢-٥٠٦ عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السختياني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة أئمة ثقات أثبات. التقريب ٥٤١ و ١١٧.

(٤) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (١/١١) (٢/٢٣).

(٥) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير (١/١١) (٢/٢٣).

فالجديد وإن كان صواباً يزعج بعضهم.. يخشون أن يطمسهم، ويسلب ما بأيديهم،
ويغير مواقعهم على الأرض، فهم على باب الجديد مترددون.. أولئك إرادتهم كالأوراق
تنتظر الرياح.. أحد هؤلاء هو:

الوليد بن المغيرة مؤمن فكافر

(فقد جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكانه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل،
فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال الوليد: لم؟ قال أبو جهل:
ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله. قال الوليد: قد علمت قريش أنني من
أكثرها مالا. قال أبو جهل: فقل فيه قولاً، يبلغ قومك أنك منكر له.

قال الوليد: وماذا أقول، فوالله ما فيكم أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا
بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن
لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعله، مغدق أسفله، وإنه ليعلو
وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته.

قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني أفكر فيه. فلما فكر، قال الوليد: هذا سحر يؤثر، يآثره عن غيره.

فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۚ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۚ وَبَنِينَ شُهُودًا ۚ ۱۳
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۚ ۱۴ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۚ ۱۵ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۚ ۱۶ سَاءَ رُفْقَهُ، صَعُودًا ۚ ۱۷
إِنَّهُ، فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۚ ۱۸ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ۱۹ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ۲۰ ثُمَّ نَظَرَ ۚ ۲۱ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ ۲۲ ثُمَّ
وَأَسْتَكْبَرَ ۚ ۲۳ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۚ ۲۴ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ ۲۵ سَأَصْلِيهِ سَعَرَ ۚ ۲۶ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا سَعَرُ ۚ ۲۷ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرَ ۚ ۲۸ لَوَاحِمَةٌ لِّلْبَشَرِ ۚ ۲۹ عَلَيْهَا تَسَعَةٌ عَشْرَ ۚ ۳۰ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ
إِلَّا مَلَائِكَةً ۚ وَمَا جَعَلْنَا عَدِيَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرْذُرَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ وَإِنَّا
وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ كَذَلِكَ
يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْبَشَرِ ۚ ۳۱ كَلَّا وَالْقَمَرِ

﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُكْبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿١﴾.

إذا كان هذا وصفهم للقرآن، وإنه ليس من كلام البشر، ولا من كلام الجن، فما الذي يملكون سوى العناد، ومعه شيء آخر هو العناد. ولذلك سلكوا طرقاً عديدة.. يحاولون النفاذ من أحدها نحو نصر ما، وكان أحد هذه الطرق الملتوية: طلب المعجزات. اجتمعوا يوماً حولهُ ﷺ ثم طالبوه بأن يقدم لهم معجزة، فأراهم:

انشقاق القمر

يا له من طلب غريب.. لا يراد منه سوى التعجيز، ليجدوا لأنفسهم عذراً للتكذيب، رفضوا كل ما على الأرض من حقائق وأدلة، واتجهوا للسماء مناكفة وتعجيزاً، ومع ذلك تحققت المعجزة، وأراها الله ورسوله ﷺ لهؤلاء، فهل غير ذلك من موقفهم؟ يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين)^(١) (فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم، فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. فسئل السفار - وقدموا من كل جهة. فقالوا: رأينا)^(٢). وكانوا قد اعترفوا من قبل فقالوا: (محمد لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم)^(٣). وكان الناس ينظرون إليه من مواقع مختلفة، فهناك من رأوا (القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما)^(٤)، وهناك من رأى (فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه)^(٥).

(١) سننده صحيح، رواه إسحاق بن راهويه، ومن طريقه: البيهقي ٢-١٩٨ والحاكم ٢-٥٠٦ عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السخيتاني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة أئمة ثقات أثبات، التقريب ٥٤١ و١١٧. وقد مر معنا.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٤.

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود الطيالسي ٢-١٢٣ حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله... ورواه البيهقي من طريق أبي داود وهشيم. وهذا لفظ هشيم ورجاله ثقات، أبو الضحى مسلم بن صبيح تابعي ثقة التهذيب ٢٠-١٢٣ والمغيرة بن مقسم ثقة متقن لكنه ربما دلس وتابعه الأعمش عند أبي نعيم. سيرة ابن كثير ٢-١١٩.

(٤) هو جزء من الحديث السابق.

(٥) البخاري ٣-١٤٠٤.

(٦) صحيح مسلم ٤-٢١٥٨

ثم يتوجه السياق من الماضي المدفون إلى الحاضر الحي.. إلى قومك أهل مكة المشركين، وإلى غيرهم ما دامت السماوات والأرض: ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَاكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ٤٣ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ٤٤ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥ ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ٤٦ ﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٤٧ ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَفَرٍ ٤٨ ﴾ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلْقْتُهُ بِقَدَرٍ ٤٩ ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمِجٌ بِالْبَصْرِ ٥٠ ﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ ٥١ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٢ ﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ٥٣ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ٥٤ ﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقَدِّرٍ ﴿ (١) لكن المشركين يدفتون الحق في أعماقهم، ويعترفون به لكنه اعتراف ك:

اعتراف أبي جهل بالحقيقة

حيث كان أحد دهاة العرب ودهاة الطوائف المدعو (المغيرة بن شعبة) ولأول مرة يعرف صدقه ﷺ، لكن على لسان من؟

الإجابة مدهشة، لأنها تومض كالجمر على لسان طاغوت قريش أبي جهل.

يقول المغيرة: (إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ، أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم، هلم إلى الله عز وجل، وإلى رسوله، أدعوك إلى الله.

قال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك.

فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل أبو جهل علي فقال: فوالله إنني لأعلم أن ما يقول حق، لكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم. قالوا: فينا الندوة. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم. قالوا: فينا السقاية. فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي... والله لا أفعل) (٢).

(١) سورة القمر: الآيات ٤٢-٥٥.

(٢) حديث حسن. رواه البيهقي ٢-٢٠٧، من طريق الحاكم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس، عن =

طاغوت مكة لا ينكر النبوة، لكنه يرفضها لأنها لم تكن في بيته.. يرفضها لأن محمداً ﷺ ليس من أهل بيته، ويرفض أن يكون تابعاً لمنافسه في الرياسة والشرف.. يستحث قريشاً لمحاربة محمد ﷺ وصحبه لا لمصلحة قريش.. لا ولا حباً في قومه، إنما حباً لنفسه. فلتذهب مكة وقريش للجحيم من أجل إرضاء غروره.

هذا هو منطق الطغاة.. يخفونه بألسنتهم، فتفضحه أعمالهم. ولم تقتصر التهم على تهمتي الكذب والسحر ف:

الجنون تهمة جديدة

لا بد من إصااق تهمة جديدة تبعد الناس عنه.. لا سيما عندما يسيل الحجيج نحو مكة، ولا شيء يفر الناس منه مثلما يفرون من الجنون والمجنوم. فليكن محمد مجنوناً... قالتها قريش دون حياء.. الأمين صيروه مجنوناً، وما يأتي به من آيات كريمة مجرد هراء.. يهذي به بلا وعي. فرية صدقها الأغبياء، وصدقها العقلاء الذي حال بينهم وبين محمد ﷺ ضباب كثيف من التهم، والتحذير قبل أن يلقوه ويسمعوا منه.. أحد هؤلاء العقلاء رجل من (أزد شنوءة).. اسمه (ضامد) قدم مكة، وكان (أن ضامدا قدم مكة كان من (أزد شنوءة) وكان يرقى من هذه الريح^(١))، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون.

فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي. فلقية فقال: يا محمد إنني أرقى من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء فهل لك؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد..

= هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن المغيرة، وهذا الإسناد جيد وأحمد بن عبد الجبار سماعه للسيرة صحيح، وهشام بن سعد حسن الحديث التهذيب ١١-٣٩. قال أبو داود: إنه أثبت الناس في زيد بن أسلم، وزيد بن أسلم كان يرسل لكن مع هذا الاحتمال له شواهد ما يقويه عند البيهقي، طريقان مرسلان، عن الزهري وأبي إسحاق.

(١) أي المس.

فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، ولقد بلغن ناعوس البحر^(١). فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي^(٢).

كلمات حق كشفت لهذا الطبيب كم هو مريض، وكشفت له أي نبي صادق ماثل أمامه، وقد قال ﷺ له ذلك لأنه ليس له موطنٌ قدم بمكة، ولأن الإسلام بحاجة إلى أمثاله من العقلاء ليتولوا نشر دين الله في أقوامهم.

وحيد في حرة يثرب

لم يكن ضمام هو الوافد الوحيد الذي استمع إلى رسول الله ﷺ، فهناك الكثير.. الكثير. منهم من منعه الخوف من التَّفَوُّهُ فاكْتَفَى بنظرات كلها حسرة، وعاد بصمت إلى موطنه. ومنهم من كشف عما يتردد في صدره لرسول الله ﷺ، ثم عاد إلى دياره بالطريقة التي تعجبه، لكن هناك من استمع إلى الحق حتى فرغ رسول الله ﷺ، وهم أن يبوح بما في قلبه من إيمان.. ارتدت أنفاسه الحارة جمرًا.. حمماً بين أضلاعه عندما عاجلته يد التسلط تحشو فمه بالتراب، وتلجمه بالصمت، فلم يتمكن من البوح إلا ساعة الممات.. ساعة لقاء ربه.

لكن يد الطفغان اكتوت بنار التجاهل واستحمت بمعركة من معارك الجاهلية التي لا طائل من ورائها سوى الحسر.. معركة اسمها:

معركة بعث

كان بالإمكان تباديها بين أهل (يثرب) لو استمع كبيرهم أبو الحيسر ومن معه إلى نداء التوحيد، لكنهم من أجل الثأر أتوا، وبالكراهية عادوا، إلا واحداً ظل غريباً على أرض يثرب، وذلك لما (قدم أبو الحيسر «أنس بن رافع» مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، وفيهم: «إياس بن معاذ»، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج،

(١) عمق البحر.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٥٢٩.